خصائص البلاغة النبوية عند أبي إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني [453هـ] من خلال مدوناته الأدبية ـ جمع ودراسة

The Features of Prophetic Eloquence According to Abu Ishaq Ibrahim Al-Husari Al-Qayrawani [453 AH] Through His Literary Records - Collection and Study

أد. عبد المطلب بوغرارة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة
مخبر الدراسات اللغوية والقرآنية ـ قسنطينة
البريد الالكتروني: abourabab1400@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/02/19 **تاريخ القبول للنشر:** 2026/06/20 **تاريخ النشر:** 2026/06/30

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

ذا مقال عن البلاغة النبوية مركزت فيه على إظهار بلاغة الحديث النبوي من خلال المدونات الأدبية للحصري القيرواني [435 هـ] أحد أعمدة الأدب في العصر الخامس الهجري بقطر القيروان في الغرب الإسلامي.

وقد جمعت كلام الحصري القيرواني عن البلاغة النبوية وتناولته من خلال إشكالية البحث التي تبحث في الخصائص البلاغية للحديث النبوي في ضوء آثار الحصري الأدبية، وكلام الحصري وإن لم يكن كثيرا لكنه كان كافيا لتناول الإشكالية وإبراز قيمة وخصائص البلاغة النبوية.

وهدفي من المقال بيان جهود الحصري في تناول البلاغة النبوية من جهة الإشادة بقيمتها والتعليل لذلك، بجمع كلامه عن البلاغ النبوي، ثم وصفه وتحليله، وتقريبها من المتخصصين.

الكلمات المفتاحية: الحصري القيرواني؛ الحديث النبوي؛ بلاغة؛ الأدب؛ البلاغة النبوية.

Abstract:

This article is about prophetic eloquence, focusing on demonstrating the eloquence of the prophetic hadith through the literary writings of Al-Husari Al-Qayrawani [435 AH], one of the pillars of literature in the fifth Hijri century in the region of Qayrawan in the western Islamic world.

I have compiled Al-Husari Al-Qayrawani's words on prophetic eloquence and addressed them through the research problem that investigates the rhetorical features of the prophetic hadith in light of Al-Husari's literary works. Although Al-Husari's words are not numerous, they are sufficient to address the issue and highlight the value and characteristics of prophetic eloquence.

My aim in this article is to clarify Al-Husari's efforts in dealing with prophetic eloquence by praising its value and explaining it, collecting his words on prophetic

eloquence, then describing and analyzing them, and bringing them closer to specialists.
key words: Al-Husari Al-Qayrawani – Prophetic Hadith – Prophetic Eloquence – Literature

مقدّمة:

لاقت الأحاديث النبوية عناية بالغة في مجالات علمية متنوعة على غرار المدونات الشرعية كالتفسير والفقه والأصول والعقائد، كما في المدونات اللغوية والبلاغية والنقدية، بله حتى الأدبية، إذ إن دواوين الأدب لم تتخلف عن تناول البلاغة النبوية التي بزت البلاغات كلها مما جعل الأدباء يحتفون بها، ويذكرون ميزاتها ويختارون عينات منها كشفت عن تفوقها، بإزاء البيان العربي، كيف لا تكون كذلك وصاحبها أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا.

ومن جملة الأدباء الذين عنوا بالبلاغة النبوية الأديب أبو إسحاق الحصري القيرواني (453 هـ)، صاحب الدواوين الأدبية المتميزة ومنها كتاب زهر الآداب وثمر الألباب، وكتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر، وقد تتبعت حديثه فيهما عن بلاغة الحديث النبوي، في هذا المقال المعد للإجابة عن إشكالية رئيسية: ما هي خصائص البلاغة النبوية التي عالجها الحصري في مؤلفاته البلاغية؟ وتحتها جملة من الإشكاليات الفرعية منها: ما هو محل البلاغة النبوية من كتابات الحصري القيرواني؟ وكيف احتفى بها في مؤلفاته الأدبية؟ وما هي أهم الخصائص البيانية التي ذكرها الحصري للبيان النبوي؟

وقضية البلاغة النبوية في الدواوين الأدبية قليلة الدرس والتناول في أقلام الباحثين لذلك آثرت البيان فيها لتكون سبيلا للدراسين في هذا المقام، أما عند الحصري القيرواني فلم أقف – حسب اطلاعي- على أي دراسة في الموضوع، ولذلك فالمقال يعد سباقا في التناول، وسأعتمد على المنهج الاستقرائي والوصفي في الدراسة مستعينا بآلية التحليل، للوصول إلى توضيح الإشكالية المطروحة.

المبحث الأول مدخل تعريفي

يحسن قبل الشروع في معالجة إشكالية البحث أن نبدأ بالتعريف بالمؤلف ومؤلفاته حتى تتكون عند القارئ فكرة عن ذلك، وليدرك أهمية كتابة القيرواني في بيان الحديث النبوي الشريف، ويقف على قيمته ويستكشف مزاياه.

المطلب الأول: ترجمة الحصري القيرواني

هو الأديب البارع والناقد البصير: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري الأنصاري[1] المشهور بلقب "الحُصَري القيرواني" نسبة إلى القيروان موطن نشأته، وكانت حذو القيروان، وقيل: الحُصْري بضم الحاء وتسكين الصاد، نسبة إلى صناعة الحُصُر أو بيعها كما ذكر ابن خلكان.

وربما جمع بعضهم فقال هو نسبة إلى قرية "الحُصُر" التي كانت تعرف بعمل الحصر، فتصح النسبة على المعنيين جميعا[2]

لم تحدد كثير من المراجع تاريخ مولده ومكانه، وقد رجح الدكتور الشويعر بأنه ولد عام 363 هـ، وأنه قد نشأ على الوراقة والنسخ لجودة خطه، وقد نظر في النحو والعروض، وأخذ في تدوين الأخبار وصنعة الأشعار، فرأس عند الناس وشرف، ووصلت تواليفه إلى صقلية وغيرها وانثالت عليه الصلات.

لم تذكر كتب التراجم **مشايخ الحصري** القيرواني إلا ما جاء من أنه كان يختلف على بعض مشيخة القيروان.

أما **تلامذته** فمنهم: ابن شرف القيرواني الشاعر صاحب رسائل الانتقاد، وابن رشيق المسيلي صاحب كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه، والأنموذج وقراضة الذهب وغيرها من الكتب النافعة، أبو طاهر التجيبي صاحب شرح "المختار من شعر بشار"، أبو طاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الأديب البرقي، وأبو عبد الله الزاهد، وغيرهم من الأدباء والشعراء الذين قصدوه من أنحاء شتى.

وقد عاصر القيرواني الحصري فترة كانت من أزهى فترات الثقافة والفكر في المغرب العربي، ونهل من الثقافة العربية الخالصة، وعكف على كتب الأدب والشعر والنقد، حتى برز في مجال الشعر ونقده، وقد جافى السياسة ومال إلى طلب العلم والأدب، حتى صار قبلة للطلاب من كل مكان يأتونه ويأخذون عنه.

وقد عرف الحصري بموهبته الأدبية وثقافته الواسعة واطلاعه الوافر وذوقه الخالص وأخلاقه الفاضلة وبعده عن سفاسف القول والمجون وكان كثير التهجد والتعبد والتلاوة والغيرة على الدين، كما كان همزة وصل في زمانه بين أدب المشارقة وبين تلاميذه الذين حبب إليهم أدب المشارقة فتأثروا بذلك وظهر تأثرهم به في فكرهم وكتاباتهم كما هو الحال عند تلميذه ابن رشيق القيرواني.

المطلب الثاني: تعريف بمدونات الحصري الأدبية

خلف الحصري القيرواني عددا من المؤلفات الأدبية وهي على النحو الآتي:

أولها: كتاب زهر الآداب وثمر الألباب: وهو أشهر كتبه وأضخمها، وهو من أمات كتب الأدب العربي وبعضهم يجعله بعض دواوين الأدب الأربعة التي سماها ابن خلدون ويسقط واحدا منها، وهو كتاب أدبي محض، جمع فيه الحصري الأجناس الأدبية من شعر ونثر وما يتصل بذلك من ضروب البلاغة وغريب الصياغة.

ثانيها: نور الطرف ونور الظرف: وهو مختصر لزهر الآداب وثمر الألباب، وأول من أشار إلى هذا الكتاب ابن رشيق القيرواني في كتابه " شعراء القيروان من أنموذج الزمان".

ثالثها: كتاب جمع الجواهر في الملح والنوادر: وقد طبع أول الأمر باسم ذيل زهر الآداب وكأنه لما أغفل بعض المواضيع الشعرية في زهر الآداب من ملح ونوادر، استدركه بهذا الكتاب، مع مختلف الأجناس الأدبية الأخرى، فهو متقاطع مع باقي مؤلفات الحصري، إلا أن فيه استطرادا بإعطاء بعض المفاهيم النقدية البلاغية. والصحيح أنه كتاب مستقل بنفسه غير ملحق بغيره، وقد قام بتحقيقه محمد أمين الخانجي.

رابعا: كتاب المصون في سر الهوى المكنون: وهو كتاب يبحث في عاطفة الحب عموما، على نحو كتاب طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي وقد كان من مراجع ابن حزم في كتابه طوق الحمامة، ناقلا من كتبه الأخرى على غرار الهمداني والجاحظ والثعالبي والمرزباني، كما نقل فيه عن فلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو وجالينوس ممن عني بدراسة الحب وفلسفته.

وهو في مؤلفاته هذه متأثر غاية التأثر بالجاحظ في مؤلفاته وعلى منوالها ينسج، فيستطرد كثيرا وينتقل من موضوع إلى موضوع آخر دون ترتيب ولا تنظيم إلا ما استدعاه المقام، لكنه يستوعب الكلام في ذلك. وقد حققه وقدم له الدكتور محمد عارف وطبع بمطبعة الأمانة سنة 1987م.

وفي الجملة فإن مؤلفات الحصري القيرواني تعد مجاميع شعرية ضخمة حفظت جانبا مهما من التراث الشعري العربي.

ومن مؤلفات الحصري القيرواني **المفقودة**[3]:

1- كتاب "**جزء مما قيل في طيبات الأغاني ومطربات القيان**: وقد أشار إليه المؤلف نفسه في كتابه جمع الجواهر وأورد قطعة منه في ثنايا الكتاب.
2- **طبقات الشعراء**: ذكره ابن رشيق في الأنموذج.
3- **ديوان شعر**: وقد أوردت بعض كتب التراث الأدبي شيئا من شعره كما في كتاب تلميذه ابن رشيق " الأنموذج" ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، والذخيرة لابن بسام، كما وردت جملة من أشعاره في كتابيه "المصون في سر الهوى المكنون"، و"جمع الجواهر".

وفاته: اختلف العلماء في تاريخ وفاته فقيل توفي سنة 413 هـ، كما ذكره ابن خلكان في كتابه نقلا عن تلميذه ابن رشيق، وقال ابن بسام كما في ذخيرته أنه توفي 453 هـ، ولعل الرأي الأول أولى لصدوره عن تلميذه الذي هم أعلم بأحواله من غيره.

المبحث الثاني: الدراسة التطبيقية للبلاغة النبوية عند الحصري

هذا مبحث نقف فيه على الجانب التطبيقي للبلاغة النبوية من خلال مصنفات الحصري الأدبية وسنقف على جملة من القضايا التي تُجَلي لنا جهد الحصري في إبراز البلاغة النبوية.

المطلب الأول: مكانة البلاغة النبوية وأسبابها عند الحصري

إن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، في البلاغة العربية تقع قنطرة واصلة بين إعجاز القرآن الكريم وبين بلاغة البلغاء بلاغةٌ شدت انتباه كل من سمعها أو قرأها، وقد اجتهد العلماء في استجلاء بيانها، وقد انتبهوا لتميز البلاغة النبوية منذ البدايات الأولى؛ حيث أشاروا إلى أثر بيئته التي نشأ فيها إذ إنه ولد في صميم قريش فهو منهم من بني هاشم المحتد الكريم لكل فضيلة فهو خيار من خيار، كما نُشِّأ في بادية سعد بن بكر؛ حيث الفصاحة المصونة عن شوب الحضر أفصح القبائل وأخلصها منطقا وأعذبها بيانا ؛ وقد هيأ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من الأسباب الحسية المبكرة في صناعة البلاغة ما يجعلها مكينة الملكة جارية على طرف لسانه، ثم ما خصه الله به من جوامع الكلم التي جعلت خصيصة به دون سائر الأنبياء قبله فضلا عمن دونهم من الناس.

وقد جاء في الآثار المروية عن أُنيس الغفاري وقد سمع من النبي عليه الصلاة والسلام قوله " إن الحمد لله نحمده ..." جعلته يقول مندهشا: ... قال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه، قال: قد سمعت قول

السحرة، وقول الكهنة، وقول الشعراء، فما سمعت بكلماتٍ مثل كلماتك، لقد بلغن قاموس البحر أو قاموس البحر[4].

ثم إن أعظم تكليف أنيط بكاهل هذا النبي الكريم هو البيان الذي يحتاج معه إلى هذا التخصيص الرباني عونا له على وظيفته البيانية والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

هذا وإن العلماء الذين زاولوا كلامه صلى الله عليه وسلم سماعا وعلما، وقع عندهم من التمايز ما جعلهم تارة يميزون الحديث النبوي عن غيره بركاكة تركيبه أو باللحن فيه ويقولون من لحن في الحديث فقد كذب عن رسول الله، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن لحانا، فضلا عن الإشادة بالبلاغة النبوية التي رزقت تأييدا من الله سبحانه الذي منحه جوامع الكلم.

المطلب الثاني: صفة البلاغة النبوية عند الحصري:

مع أن حديث الحصري عن البلاغة النبوية لم يكن مستقصيا ولا مسهبا إلا أنه جاء فيه من الإشارة ما يغني عن ذلك كله، وقد اخترنا من كلام الحصري عن البلاغة النبوية ثلاثة نقول وهي الآتي ذكرها:

الفرع الأول: النقل الأول

يقول الحصري في موسوعته الأدبية زهر الآداب وثمر الألباب: (رجعت إلى ما قطعت، مما هو أحق وأولى، وأجلّ وأعلى، وهو كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم **الكريم النّجر، العظيم القدر**، الذي هو النهاية في البيان، والغاية في البرهان، المشتمل على **جوامع الكلم، وبدائع الحكم**)[5].

فهذا نص عدد به الحصري جملة من مزايا البلاغة النبوية، والتي بلغ بها ستة أوصاف على النحو الآتي:

أولا: الكريم النجر: والنجر يطلق على الطبع، وكذا الأصل والحسب[6]، وهذا راجع إلى النسب القرشي، فمولده في بني هاشم، وأخواله بنو زهرة، ورضاعه في بني سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة، ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب جملة[7] وهو عليه السلام العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة،

وقد انتبه الناس لهذا المقام في الفصاحة وهو معدن الإنسان، فإنه كان عربي الآباء والأجداد وذلك وحده كفيلٌ بحيازة الفصاحة، كما قال ابن عبدل:

فـــــــسلِ الأمير غير موفّق ... وبنو أبيه للفصاحة معدنُ

وسل ابن ذكوان تجده عالما ... بسليقة العرب التي لا تحزنُ

ولم يفت الجاحظ وهو من مؤسسي علم البلاغة العربية أن ينبه إلى هذا الأمر كما في البيان والتبين إذ نجده يقول "أن تلك اللغة إنما انقادت واستوت، واطردت وتكاملت، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة، وفي تلك الجيرة، ولفقد الخطأ من جميع الأمم" [8]، فالجاحظ يقف على أهمية النشأة والبيئة في صناعة الفصاحة لدى أربابها.

ثانيا: العظيم القدر: ويريد به أثر كلامه عليه الصلاة والسلام على مستمعيه وهو أمر أخبر به غير واحد ممن عانى كلامه عليه الصلاة والسلام وقد قالت فيه عائشة رضي الله عنها مقولته المشهورة " كان كلامُ رسولِ اللهِ ﷺ كلاماً **فَصْلاً**، يفهمُه كلُّ مَن يسمعُه"، وقالت أيضا: " إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُحَدِّثُ حَدِيثاً لو **عَدَّهُ العَادُّ**

لَأَحْصَاهُ"[9]، وقد مر معنا كلام أنيس الغفاري رضي الله عنه لما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم كلامه قبل إسلامه وقد كان شاعرا عالما بتفاضل الكلام ومراتب البلغاء والشعراء.

وليس ذلك بغريب على من امتلك فطرة صافية، ونفسا مجتمعة على الفضائل، مع صفاء الحس ونفاذ البصيرة، واستقامة الأمر كله، ثم ما أذكى ذلك كله من دوام الفكر، وطول السكوت، وحب الخلوة التي كانت أعظم مربٍّ[10].

ثالثا: نهاية البيان: بمعنى أنه لا يعلو بلاغته بلاغة بليغ، فعلى علو كلامه لم يكن فيه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج إلى مراجعته، لأنه كلام مقصده الأول منه بلاغ الناس، فلا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، وإن وُجِد شيء من ذلك فهو النادر القليل[11].

رابعا: الغاية في البرهان: وهذا ما بينه الجاحظ من قبل في وصفه للبيان النبوي لما قال: (فلم تسقط له كلمة، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم إلا أفحمه. خطيب برَّ (غلب) الناطقين، وحاز قصب السابقين، لم يلتمس إسكات الخصم بما لا يعرفه الخصم، ولم يحتج إلا بالصدق، ولم يطلب الفلج إلا بالحق)[12].

خامسا: جوامع الكلم: وسمة جوامع الكلم تُعَـــدُّ روح البلاغة النبوية وصفتها المطردة والتي لا تحتاج إلى تدليل، ومن المعاني التي ذكرت في تفسير جوامع الكلم: أنه الكلام خالص قاصد باجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وهذا النمط الغالب على البيان النبوي هو الأكثر شيوعا عند العامة، وأكثرها تناولا عند المشتغلين بالأدب والبلاغة.

زمن معانيها أيضا أنها: اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات قد يبسطها الشارحون في مجلدات.

وهذا المقام هو تأييد من الله لنبيه عليه السلام وهو مقام تخصيص[13]، لا يشاركه فيه أحد من الخلق لأنه من الخصائص النبوية المحمدية.

سادسا: بدائع الحكم: وهذا في الحقيقة وصف لنسق بلاغته عليه السلام ومضمون البيان النبوي، وحكمته لا تدانيها حكمة، لأنها حكمة النبوة وتبصير الوحي وتأديب الله، ثم إن العرب الذين نشأ فيهم النبي صلى الله عليه وسلم يعدون من الأمم الحكيمة كما أشار إلى ذلك الجاحظ: "الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع، وهي: العرب، والهند، وفارس، والروم"[14].

وهذه الأوصاف وغيرها جاءت على أتمها وأكملها بحيث لم تُدخل واحدة منها الشيم على أخواتها بوجه من الوجوه.

الفرع الثاني: النقل الثاني:

ويقول الحصري في مقام آخر: "وهذه شذور من قوله صلى الله عليه وسلم الصريح الفصيح، العزيز الوجيز، المتضمّن بقليل من المباني كثير المعاني".

وهذه الجملة تضمنت وصف كلام النبي صلى الله عليه وسلم بـ:

الصراحة: التي يريد بها الوضوح وكلام النبي صلى عليه وسلم كذلك لأن غرضه الأول هو البيان الذي أمر به من ربه عز وجل، وهذا الوصف يتضمن معنى البيان وقد سبق الإشارة إلى ذلك في النقل الأول.

الفصاحة: وهذا أمر جلي في كلام النبي صلى الله عليه وسلم شهد له به قومه والعرب والأعراب الذين اجتمعوا به وسمعوا منه ما أدهشهم على اختلاف لهجاتهم.

العزة: بمعنى أنه يعز أن يوجد مثله في غيره، وذلك لأنه اختصاص من الله سبحانه لنبيه في الكلام على وجه التخصيص لأنه آلة البيان ومنشؤه.

الوجيز: وهذا هو الهدي في كلامه عليه الصلاة والسلام، كما وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مناسبات مختلفة.

المتضمن بقليل من المباني كثير المعاني: وهذا من آثار وجازته وفصاحته، مع التأييد الإلهي بذلك العطاء المختص به صلى الله عليه وسلم.

الفرع الثالث: النقل الثالث:

ونقل آخر يعزز هذا المعنى، وهو تعليق الحصري على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش، واسترضعت في سعد ابن بكر"!

إذ يقول: "وليس بعض كلامه بأولى من بعض بالاختيار، ولا أحقّ بالتقديم والإيثار؛ ولكنى أورد ما تيسّر منه في أول هذا الكتاب استفتاحا، وتيمّنا بذلك واستنجاحا"[15].

ومما تميز به الكلام النبوي بعده عن الكلفة والغموض والإغراب، فلم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة، وسر ذلك أنه يريد البلاغ ولا يريد أن يكون بينه وبين السامع حاجز من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب مع قلة كلامه وتكراره في أحيان كثيرة لأجل التفهيم ودفع التأويل، وهكذا كان بيانه صلى الله عليه وسلم: كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار لا زخرف ولا حيلة ولا مشقة في ابتغاء التأثير، ولذلك كره سجع الكهان[16].

المطلب الثاني: مظاهر البلاغة النبوية عند الحصري القيرواني

حاول الحصري في ثنايا حديثه عن البلاغة النبوية أن يأتيها من زوايا مختلفة حتى يستوفي لها حقها ويظهر قيمتها في البيان العربي، ويكشف مظاهرها، وهذا مطلب نعرض فيه النواحي التي جعلها الحصري مظاهر للبلاغة النبوية في كتبه الأدبية.

الفرع الأول: تهيؤ النبي صلى الله عليه وسلم لتذوق للبلاغة وتأثره بالبيان العربي:

لما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تسنم البلاغة العربية مقالا، فإنه كان مرهف الحس أيضا بما يقع في مسمعه من الكلام وهو يعيش في بيئة البيان الأعلى، وقد وقف الحصري على آثار تدلنا على مقام تذوق النبي صلى الله عليه وسلم لبلاغة الكلام، وقبل ذلك وبعده تأثره بالقرآن الكريم في بيانه المعجز، وهو صلى الله عليه وسلم أقدر الخلق على فهم الوجوه البلاغية في أسرار الإعجاز الإلهي[17].

ومن ذلكم ما يُروى أنّ ابن سيرين قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره قد شنق ناقته بزمامها حتى وضعت رأسها عند مقدمة الرّحل إذ قال: يا كعب ابن مالك: أُحْدُ بنا! فقال كعب:

قضينا من تهامة كلّ حقّ ... وخيبر ثم أجممنا السّيوفا

نخيّرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهنّ: دوسا أو ثقيفا[18]

فقال عليه السلام: والذي نفسي بيده لهي أشدّ عليهم من رشق النّبل! فانظر كيف بين النبي عليه الصلاة والسلام أثر هذه الأبيات على المشركين وكيف أشاد بقائلها، وكشف أثرها على سامعيها من المشركين.

وفي قصة النضر بن الحارث، وقد كان ممن أسر يوم بدر، وكان شديد العداوة لله ولرسوله، وقتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه صبرا فعرضت النبي صلى الله عليه وسلم أخته قتيلة بنت الحارث- وفي بعض الروايات أن قتيلة أتته فأنشدته:

يا راكبا إنّ الأثيل مظنّة ... من صبح غادية وأنـــــت موفّق
أبلغ بها ميتا بأنّ تحيّة ... ما إن تزال بها النّجائب تعـــــنق
منّى إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأخرى تخنـــــق
هل يسمعنّى النّضر إن ناديته ... إن كان يسمع ميّت لا ينطق
ظلّت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تـــــشقّق
قسرا يقاد إلى المنيّة متعبا ... رسف المقيّد وهو عان مـــوثق
أمحمد ها أنت صنو كريمة ... في قومها والفحل فحل معـرق
ما كان ضرّك لو منننت وربّما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة ... وأحقّهم إن كان عتق يعـتق
أو كنت قابل فدية فليفدين ... بأعزّ ما يغلى به من ينفـــق

فذكر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رقّ لها ودمعت عيناه، وقال لأبي بكر: لو كنت سمعت شعرها ما قتلته![19] فانظر إلى أثر الكلمات على قلب النبي صلى الله عليه وسلم وعلى عينيه وكيف ذكر أن الأبيات لو قيلت قبل مقتل النضر لكانت شفيعة عن قتله.

وقد كان بعض أهل العلم يغمز في أبيات قتيلة بنت الحارث ويقول: إنّها مصنوعة.

وفي الأغاني دخل عليّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا أتمثّل بهذين البيتين:

فقال صلّى الله عليه وسلّم: "ردّي عليّ قول اليهوديّ قاتله الله! لقد أتاني جبريل برسالة من ربي: أيّما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه"[20].

ومما يدخل في هذا الباب اتخاذه عليه الصلاة والسلام لجملة من الشعراء، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر وأثاب عليه، وندب حسّان بن ثابت إليه، وقال: إن الله ليؤيّده بروح القدس ما نافح عن نبيه، ودعا عبد الله بن رواحة فاستنشده فأنشده فقال: أنت شاعر كريم، ثم دعا كعب بن مالك فاستنشده فأنشده، فقال: أنت تحسن صفة الحرب، ثم دعا بحسّان بن ثابت فقال: أجب عني[21]

فهذه نماذج صالحة لبيان الذائقة البيانية التي كان يمتلكها النبي صلى الله عليه وسلم.

الفرع الثاني: نماذج مختارة للحصري من بليغ كلام النبي صلى الله عليه وسلم:

لقد اختار الحصري جملة من كلام النبي عليه الصلاة والسلام ليدلل به على فصاحته واقتداره من ناصية البيان، وهذه جادة سلكها كثير من الأدباء في مختاراتهم الأدبية، فلا يفوتهم أن يختاروا طائفة من كلام

النبي عليه الصلاة والسلام، وكلمات النبي صلى الله عليه وسلم هي الكلمات التي لا يشوبها كدر العيّ ولا يطمس رونقها التكلف ولا يمحو طلاوتها التفيهق[22].

وقد نبه الحصري في هذا المقام تنبيها مهما لما قال: "وليس بعض كلامه صلى الله عليه وسلم بأولى من بعض بالتقديم، ولا أحق بالإجلال والتعظيم، وإنما بدأت بكلمته تيمناً ببركته"[23].

وذكر أنه حذف أسانيد ما رواه، وجاء بمتون ما رآه، إذ هي الغرض المطلوب من استمالة القلوب، بما تحويه من سحر البيان، وسر البرهان، وهذه شذور من مختاراته من كلام النبي صلى الله عليه وسلم:

قوله للأنصار: "إنكم لتقلّون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع".

وقوله عليه الصلاة والسلام: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة".

"إياكم وخضراء الدّمن"

"كلّ الصّيد في جوف الفرا" - قاله لأبي سفيان صخر بن حرب-

"الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا".

"أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم".

"المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبيْ زور".

"المرأة كالضلع إن رمت قوامها كسرتها، وإن داريتها استمتعت بها".

"اليد العليا خير من اليد السفلى".

"مطل الغنيّ ظلم".

"يد الله مع الجماعة".

"الحياء شعبة من الإيمان".

"مثل أبي بكر كالقطر، أينما وقع نفع".

"لا تجعلوني في أعجاز كتبكم كقدح الراكب"

" أربعة من كنوز الجنة: كتمان الصّدقة والمرض والمصيبة والفاقة. جنة الرجل داره. الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا. كفى بالسلامة داء. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم. ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى. كلّ ميسّر لما خلق له".

"اليمين حنث أو مندمة".

"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. انصر أخاك ظالما كان أو مظلوما".

"احترسوا من الناس بسوء الظّنّ".

"النّدم توبة".

"انتظار الفرج عبادة. نعم صومعة الرجل بيته".

"المستشير معان والمستشار مؤتمن".

"المرء كثير بأخيه".

"إنّ للقلوب تصدأ كصدإ الحديد وجلاؤها الاستغفار".

"اليوم الرّهان وغدا السّباق، والجنّة الغاية".

"كلّ من في الدنيا ضيف، وما في يديه عاريّة، والضيف مرتحل، والعاريّة مؤدّاة".

هذه منتخبات أراد الحصري أن يقدمها لتكون عنوانا على بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تكلم عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم من علماء البيان يوردون طائفة من الكلام النبوي حتى يقف القارئ على تلك البلاغة ولا يكتفي بوصفها، وقد وجدنا الجاحظ ينبه إلى بلاغة النبي عليه السلام بموازنته مع غيره مظهرا لتفوقه على غيره من الكلام، فيقول مثلا: "يحب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير، حافظاً لا يبلغ البخل، شجاعاً لا يبلغ الهوج، محترساً لا يبلغ الجبن، حيياً لا يبلغ العجز، ماضياً لا يبلغ القحة، قوالاً لا يبلغ الهذر، صموتاً لا يبلغ العي، حليماً لا يبلغ الذل، منتصراً لا يبلغ الظلم، وقوراً لا يبلغ البلادة، نافذاً لا يبلغ الطيش". قال: "ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع ذلك في كلمة واحدة، وهي قوله عليه السلام: "خير الأمور أوساطها". فعلمت أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم.، وعُلِّم فصل الخطاب".

وقد وصف الجاحظ كلام النبي صلى الله عليه وسلم في البيان والتبيين بقوله: (استعمل التوسط وهجر الغريب ورغب عن الهجين، فلم ينطق إلا عن حكمة، ولم يأت إلا بكلام حف بالعصمة، وسدد بالتأييد، وهو الكلام الذي ألقى الله عز وجل عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والجلالة والإفهام، وقلة عدد الحروف، مع قلة حاجة السامع إلى معاودته، فلم تسقط له كلمة، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم إلا أفحمه. خطيب بذ الناطقين، وحاز قصب السابقين، لم يلتمس إسكات الخصم بما لا يعرفه الخصم، ولم يحتج إلا بالصدق، ولم يطلب الفلج إلا بالحق، لا يلمز، ولا يهمز ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، فلا يسمع الناس كلاماً أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم)[24].

وهذا كله مما اصطفاه الله سبحانه وتعالى به وحباه، إذ هو (آخر الأنبياء فى الدنيا عمرا، وأولهم يوم القيامة ذكرا، وأرجحهم عند الله ميزانا، وأوضحهم حجّة وبرهانا. صدع بالرسالة، وبلغ بالدلالة، ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم)[25].

قال إبراهيم بن العباس الصولي: لو وزنت كلمات النبي ﷺ إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم بكلام أهل الأرض لرجحت[26].

وقال قبل ذلك هند بن أبي هالة في صفته: ويتكلم بجوامع الكلم قولاً فصلاً، لا فضلاً ولا تقصيراً؛ وقالت أم معبد في صفة كلامه أيضاً: حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خزرات نظم يتحدرن"[27].

وبلاغة النبي صلى الله عليه وسلم تنادي على نفسها بالسبق الذي لا مطمع لطامع أن يقترب من ساحتها، لأنها اختصاص رباني من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، وقد شهد بذلك كل من سمع أو قرأ الكلام النبوي الشريف.

خاتمة:

وفي ختام هذا المقال نقف على نتائجه وأهمها:

- عناية الحصري القيرواني بالبلاغة النبوية واحتفاؤها بها غاية الاحتفاء من خلال مدوناته الأدبية.
- إظهار السمات البلاغية للكلام النبوي ومحاولة تفسير تفوق الكلام النبوي على ما هو دونه من كلام البلغاء والشعراء.
- تعداد الحصري لخصائص الكلام النبوي، وقد وفق الحصري إلى تعدادها مع أنه أجملها وتركها من غير شرح، وله في ذلك فضل الجمع وللباحثين أن يبينوا ما أجمله.
- تقديم الحصري لطائفة من الأحاديث النبوية الشريفة لتكون برهان بلاغته وعنوان فصاحته.

أما عن التوصيات:

- فلعل أهم ما يُرشد إليه الباحثون أن تبحث البلاغة النبوية من خلال المدونات الأدبية المتنوعة على غرار البيان والتبيين الأمالي للقالي وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة ونحوها من المدونات الأدبية.
- العناية بالشاهد النبوي في علوم اللغة على تنوعها وخاصة في مدونات البلاغة التي يندر فيها إيراد الحديث النبوي سواء للتمثل أو للاستشهاد.
- جمع شتات البلاغة النبوية من مدونات الأدباء واللغويين المختلفة وشرح ما أجملوه من خصائص البلاغة النبوية.

المصادروالمراجع:

1. أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، الناشر: دار الجيل، بيروت.
2. أبو إسحاق الحُصري القيرواني (المتوفى: 453هـ)، نور الطرف ونور الظرف، نسخة المكتبة الشاملة.
3. أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: 321هـ)، المجتنى، الناشر: دائرة المعارف العثمانية. د ت ط
4. أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، الطبعة الثانية، دار الفكر - بيروت
5. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
6. الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب (المتوفى: 255هـ)، البيان والتبيين، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام النشر: 1423 هـ.
7. عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، طبعة 2014م.
8. عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني (المتوفى: 654هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.
9. العيد بوده، منهجية التأليف عند أبي إسحاق إبراهيم القيرواني، أطروحة دكتوراه في النقد المغربي القديم، عام 2018-2019، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، إشراف الدكتور: العيد جلولي.
10. علي محمد علي، أبو إسحاق الحصري القيرواني ونظرات في تراثه الأدبي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد 8.
11. صباح عبيد درا، السمات البلاغية في بيان النبوة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، طبعة 1425هـ - 2014م.

الهوامش

[1] _ وهو غير أبي الحسن الحصري الضرير صاحب قصيدة "يا ليل الصب متى غده؟"، وقد ذكر ابن رشيق القيرواني بأنه ابن خالته، وهما متغايران في الكنية والاسم ومشتركان في النسبة، ومن لا يفرق بينهما يهم في نسبة آثار أحدهما للآخر، ينظر في ذلك منهجية التأليف عند أبي إسحاق إبراهيم القيرواني، للدكتور: العيد بوده، أطروحة دكتوراه في النقد المغربي القديم، عام 2018-2019، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، إشراف الدكتور: العيد جلولي، ص (27)

2 - ينظر: مقال أبو إسحاق الحصري القيرواني ونظرات في تراثه الأدبي، مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد 8 ص 136

[3] - المصدر السابق، ص (33-40)

[4] - وقاموس البحر: قعره أولجته التي تضطرب أمواجها.

[5] - زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري (1/ 59)

6 - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي - دار العلم للملايين، باب الراء فصل النون، (2/ 823)

7- السمات البلاغية في بيان النبوة، صباح عبيد درا، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، طبعة 1425هـ - 2014م، (ص: 13).

8 - البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت -لبنان، طبعة: 1423، (1/ 148)

9 - أخرجه مسلم برقم 7701، في كتاب الزهد والرقائق، باب التَّثَبُّتِ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ، (ج8، ص 229).

10- مصدر سابق، (ص 14).

11 - يُنظر عبقرية محمد، للعقاد، (ص 110).

12 - البيان والتبيين، للجاحظ، (2/ 13).

13 - كما في الحديث الصحيح " أوتيت خمسا لم يؤتهن أحد قبلي: ... وأوتيت جوامع الكلم".

14 - البيان والتبيين، للجاحظ (1/ 304).

15 - زهر الآداب وثمر الألباب، ج1، (ص 59).

16 - عبقرية محمد، للعقاد، مؤسسة هنداوي، طبعة عام: 2014، بتصرف (ص 68-69).

17 - صباح عبيد درا، السمات البلاغية في بيان النبوة، مكتبة وهبة، القاهرة، طبعة: 1435-2014، (ص: 15).

18 - زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري (ج1 ص 65).

19 - المصدر نفسه، (ج1 ص 66).

20 - الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، د ت ط، (ص 3/ج 111).

21 - ينظر زهر الآداب وثمر الألباب، (ج1 ص 62).

22 - المجتنى، ابن دريد الأزدي، دار المعارف العثمانية، (ص: 2).

23 - نور الطرف ونور الظرف، للحصري (ص: 3).

24 - البيان والتبيين، للجاحظ (ج2 /ص 13-14).

25 - زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري (ج4/ص 1162).

26 - الملح والنوادر، الحصري (ص 136).

27 - تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر (ص: 292).